

ابن ميادة^(١)

مدائحُه ، غزله ، فله

بقلم حسن علوانه

المدرس بالمدرسة الخديوية

٢

في هذا المقال سنتناول بالنظر مدائح ابن ميادة وغزله ، والمدح والغزل
عمودان من عمده الشعر ، وغرضان من أسس أغراضه ، في أخريات العصر
الأموي ، وأولات العصر العباسي ، وقد لابسهما ابن ميادة ، وعاش فيهما .
والمدح فن من الشعر ، يريد الشعراء المعاصرون ، أو الشعراء المجددون ، أن
يسقطوه من أغراض الشعر ؛ ويزعمون أن العاطفة لا توحى به ، وأن الوجدان
لا يستشعره . ولو أنصفوا الأقدمين لما أصدروا عليهم حكما قبل أن يفهموا
ملايسات حياتهم ، ومقتضيات بيئتهم . ولأنهم لو فعلوا لعلوا أن الشعر مرآة تتجلى
فيه صورة العصر ، أو أن كلا من الشعر والبيئة يصور الآخر ويترجم عنه ،
والعصور قد تختلف ألوانها ، والبيئة قد يتغير قوامها ، ولكن الشعر هو الذي
يحفظ صورها ، ويدون حقائقها ، وقد يصبح الغرض النيل في عصر من العصور ،
سجيا سخيفا في عصر آخر ، فليس من الرأي الأصيل ، أن ننال الأقدمين بالزراية ،
لأن بطون دواوينهم تتخما أشعار المدح ، أو نسخر منهم لأنهم تغالوا في وصف
الناقة ، وبالغوا في التحدث إليها ، والتطرب بحنينها ، وهي طائفة زمانهم ، وجوابة
موماتهم ، ووسيلة الوصول إلى أحبتهم .

ولقد كان الاستبداد والآثرة من طبائع الخلفاء والملوك السابقين ، وكانت

(١) راجع المقال الأول في العدد الثاني . من السنة الثانية من صحيفة دار العلوم

الضرائب تجبى إليهم، وتتدفق في خزائهم، فينفقونها في إشباع رغباتهم، ويجودون بها على من ترضى عنه مشيئتهم، فمن استطاع أن يهز أعطافهم، أو يحرك أريحياتهم، أو يبيع الحمد والثناء إليهم، فقد تحاشاه الفقر، وأقبل عليه المال الوفير. وكان بيت المال في هذا الزمان، جلا لذوى القرائح المتقدة، والمواهب الممتازة، من الشعراء والأدباء، والرواة والفقهاء. وما كانوا يصدرون في مدحهم أو تندرهم عن ملق أو رياء، لأنهم يعتقدون أن الخليفة صاحب الحق المطلق في مرافق الدولة، وأنه يعظم فوق كل تقدير، وتنقطع دون مقامه غاية كل مدح، وأن هذا المال أحق به من بلغ المدى في الفن، وطار دون سواه في سماء الإبداع، وقد يكون من الشعراء منقطع القرين، فيستولى وحده على العطاء، كما قطع أبو تمام في عصره جوائز الشعراء.

على أن المدح في رأي أنبل قصدا. وأسمى غاية، من قول هراء، يصوغه شعراء هذا الزمان في « وصف القبة. أو ألحان الألم. أو ساعة في ضوء القمر، وكل ألفاظه مبتذلة، ومعانيه رخوة فلسفة، وغايته لين وضعف، يآباه هذا العصر الذي يمجّد القوة، ويتغنى بالكسب والعمل. وشعراء المدح كثيرا ما يمجّدون الهمم العالية، والنفوس الآلية، ويسوقون إلى البطولة والتضحية، ويعثون المروءة والأريحية، ويعرضون للوقائع الحربية فيصورونها، وللحوادث التاريخية فيسجلونها، ويخلدون الأبطال والعظماء، ويشيدون بذكر القواد والزعماء؛ فأى رسالة للشعر خير من هذا؟ وأى نفس لا تشبع بهذه المثل العليا؟ أما أولئك الذين يتحدثون عن الوجيع ولا وجع، ويهتفون بذكر الغرام ولا غرام، ويرددون الكلام عن الوفاء ولا وفاء؛ فلا أحسبهم شعراء.

وابن ميادة كان أزهد الناس في مدح الناس، وما مدح إلا خليفة أو أميرا، وقد قصر مدائحهم على قيس قورمه، وعلى قريش آل الخلافة والملك، إلا أنه لم يكن شاعرا فصلا، والشاعر الفصاح هو الذي يمدح الناس ليأخذ جوائزهم، وإنما كانت تدعوه للمدح عقيدة أو محبة، لأنه كان شديد الاعتزاز بنفسه حتى وقر فيها وقارها، وعرف لها مقدارها، وقبض نقي العرض، مصون الوجه،

وكان إذا وجد الكفاف لا يسأل بالشعر ؛ فقد حكى أنه مدح أبا جعفر المنصور بكلمته التي يقول فيها :

فوجدت حين لقيت أيمن طائر - ووليت حين وليت بالإصلاح -
وعفوت عن كسر الجناح ولم يكن لتطير ناهضة بغير جناح
قوم إذا جلب الثناء عليهم بيع الثناء هناك بالآرباح
وأناه راعي إبله بلبن فشرب ، ثم مسح على بطنه ، وقد عزم على الرحلة ؛
فقال : سبحان الله ! أفد على أمير المؤمنين وهذه الشربة تكفيني ، وصرف
وجهه عن قصده ، فلم يقد عليه ، فأنت ترى كبر نفسه ، وبعد همته ؛ على أن
عبد الله بن عمر على جلالة ، والحسن البصري ، وعكرمة ، ومالك بن أنس المدني ،
وجلة من أهل العلم ، غير هؤلاء كانوا يقبلون صلات الملوكة (١) . وكان الرماح
سامي النفس ، عادل الحكم ، بعيد المدارك ، لا تستجره الرغبة في نيل العطاء إلى
التعريض بخصوم الخليفة ، أو ذم أعدائه كما انزلق سواء من الشعراء في تيار
الحزبية ، واندفعوا في فتنة الخصومة ، ولهذا بقى عظيم الشأن ، كبير القدر ، لدى
الخلفاء الأمويين والعباسيين . وكان لا يبالى سخط الخليفة عليه ، إذا كان في إعلان
ريه ، أو إبداء ما يظن أنه الحق سخط عليه ، فقد قيل إنه « دخل على الوليد
ابن يزيد ، وأنشده قصيدة يقول فيها :

فضلنا قريشا غير آل محمد - وغير بني مروان أهل الفضائل -
فقال الوليد : قدمت آل محمد قبلنا . فقال : ما كنت يا أمير المؤمنين أظنه
يمكن غير ذلك . فلما أفضت الخلافة إلى بني هاشم ، ودخل على المنصور ، قال له
كيف قال لك الوليد ؟ فأخبره بما قال ، فجعل المنصور يتعجب (٢) ، فلم يستطع
الوليد أن يحمله على تغيير رأيه ، وهو من المتصلين ببابه ، المختصين بمعروفه ، لأنه
كان دعبا طربا ، حلو الشئال ، خفيف الروح ، فألف هذا المزاج بينه وبين الوليد ،
فأنس به ، وخف على قلبه ، وقد اتصل به قبل أن تصير الخلافة إليه ، لأن الوليد

(١) العمدة ج ١ ص ٥١

(٢) ديوان الحماسة ج ٢ ص ١٢٠ شرح الرافعي

لما شرب الشراب ، واتخذ الندماء ، وظهر منه مجون ، وبدل الناس منه تهاون بالدين ، واستخفاف به ، أخذ هشام يعيه ويتنقصه ، وكثر عيبه به وبأصحابه ، فلما رأى الوليد ذلك خرج وخرج معه ناس من خاصته ومواليه ، فترل بالأزرق ، في جزيرة العرب ، بين أرض بلقين وفزارة ، على ماء يقال له الأغدق ، وأقام هناك حتى مات هشام (١) فتعرف إليه ابن ميادة ، ولقي منه الوليد أنسا وظرفا وأحبه ، فلما صارت إليه الخلافة رحل إليه ، فأدناه وأكرمه ، وفضله على الشعراء أجمعين (٢) ، ومن قوله في الوليد :

لما أتيتك من نجد وساكنه نفحت لي نفحة طارت بها العرب
إني امرؤ أعتفى الحاجات أطلبها كما اعتفى سئق (٣) يلقي له العشب
ولا ألح على الخُلان أسألهم كما يلح بعظم الغارب القتبُ
ولا أخادع ندماني لأخدعه عن ماله حين يسترخي به اللب
وأنت وابنك لم يوجد لكم مثل ثلاثة كلهم بالتاج معتصب
الطيون إذا طابت نفوسهم شوس الجواجب والأبصار إن غضبوا

وهذا الصنف من المدح يصور لك نفس ابن ميادة الكريمة ، ويتراءى منه إياؤه وشممه ، لم يعرض كرامته في سوق الضراعة والاستجداء ، ولكنه يفخر بأنه يتعفف عن سؤال الخُلان ، ويأبى أن يطرح نفسه في مطارح الهوان ، ولم يزد في مديحه إياه على أن جزيل عطائه رفع من قدر العرب ، وعقب على ذلك ، بأنه يطلب الحاجات زاهدا فيها ، فلا يحرص عليها ولا يشتد في طلبها ، ويزهّد فيها زهد من تضلع من الطعام وبه منه كظة ؛ فما أشبهه بأولئك الذين قال الله فيهم : « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، تعرفهم بسيماهم ، لا يسألون الناس إلحافا » ثم يريه أنه لا يخدع صديقه بزخرف القول ، وزيف المدح إذا صار في خفض العيش ، وتقيا في ظلال النعيم ، ليستدر ماله ، وينال عطائه ،

(١) تاريخ الطبري ج ٨ ص ٢٨٨ بتصرف

(٢) أغاني ج ٢ ص ٣٠٢

(٣) السق الذي قد شبع حتى بشم

وبعد هذا السياق الذي لا يدع مجالاً للشك في عزة نفسه، وشرف غايته يذكر أنه وابنيه حقيقون بالخلافة جديرون بالتاج والملك، وأنهم وأسعو الرضا إذا طابت نفوسهم، شديدو السخط إن غضبوا، فهو لم يجد على الخليفة وابنيه من الثناء بقدر ما نعت به نفسه من الخلال الحميدة والمناقب الشريفة، ولم يغنه ذلك. ولكنه بعد الآيات السابقة انبرى على طريقة أبي الطيب يزهو بنفسه، ويسمو بها على سائر الشعراء. ويجرى أمامهم في حلبتهم، فلا يشق غباره، ولا يدرك مداه فيقول:

قسنى إلى شعراء الناس كلهم وادعُ الرواة إذا ما غث ما اجتلبوا
إني وإن قال أقوام مديحهم فأحسنوه وما حابوا وما كذبوا
أجرى أمامهم جرى امرئ فليج عنائه حين يجري ليس يضطرب
ألا ترى أن الرماح رسم إلى المتنبى هذا الطريق، ودله على السبيل، في هذا النهج الجميل، الذي يسوق الزهو بالنفس، والعجب بها، في معرض يوثق السمع، ويرتاح إليه الطبع، وتسربه النفس، ويقبله الفؤاد، فيقول وهو يمدح سيف الدولة:

وما الدهر إلا من رُواة قصائدى إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً
فسار به من لا يسير مشمراً وغنى به من لا يغنى مغرداً
أجزنى إذا أنشدت شعراً فإنما بشعرى أذاك الملاحون مردداً
ودع كل صوت غير صوتى فإنما أنا الطائر المحكى والآخر الصدى
وشتان بين شاعر البادية، الذي يرسل قوله عن فطرة خالصة، وسليقة صافية، وخواطر لم ينسج خيوطها إلا من طبع مجيب، وإلهام موات؛ وبين شاعر الحكمة والفلسفة الذي نبت في أحضان حضارة إسلامية منخولة، نضجت وآت ثمرها، وتغذى عقله بعصارة علوم الفرس والروم واليونان.

ولقد بقى ابن ميادة على الوفاء للوليد بعد أن قتل، رغم اضطراب الأمور، وجنون الفتنة بعد مصرعه، وتسابق الموتورين والطامعين من العرب إلى التكيل به؛ ووصمه بكل بقاء مشهورة، فقد حدثوا أن عبد السلام بن شماخ اللخمى

طار فاحتز رأسه ، ليقبض من يزيد بن الوليد مائة ألف ثمنها ، وأقبل أبو الأسد مولى خالد بن عبد الله القسري ، فسلخ من جلد الوليد ليثأر لمولاه خالد ، وجاء عمرو بن مروان وقطع كفه اليسرى وبعث بها إلى يزيد بن الوليد زلقى إليه ، وعرض رأسه على أخيه سليمان بن يزيد فردده وشتمه ، وقال أشهد أنه كان شروباً للخمر ، ماجناً ، فاسقاً (١) ، مع كل هذا حفظ ابن ميادة عهده ، وبكاه ورثاءه ، وعرض بني مروان لبشاعة التمثيل ، وفظاعة قتله ، فقال :

ألا يالهفتي على الوليد غداة أصابه القدر المتاح
ألا أبكي الوليد قتي قریش وأسمحها إذا عد السماح
وأجبرها لذى عظم مهيض إذا ضنت بدرتها اللقاح
لقد فعلت بنو مروان فعلاً وأمرأ ما يسوغ به القراح

أما غزل ابن ميادة فبدوى صميم ، وحجازي رقيق ، وخياله صحراوي بحت ، تهيجه النار تلوح له من بعد ، في جنح الليل البهيم ، ويخيل إليه أنها أوقدت حيث تحل الحبيبة ، ويثير ما بين جوانحه الأمكنة التي قد تتمر بها ، أو تحل فيها ، أو كانا يلتقيان عندها ، فيتغنى بها ويتطرب بذكرها . وتارة يتمثل إليه أن ضفيريها المرسلتين على متنها سعف النخل ، وأن فتيت المسك تنثر حولها ، وأنها آتق منظراً ، وأعطر ريحاً من روضة يخضلها الندى ، ويتوجها الأقحوان والعرار ، وأن درعها وخمارها قد ضما على أسطع من ريح القرنفل ، وأطيب من شذى المسك ، وأنها أندى صوتاً ، وأحسن التفاتة من ظلية ترسل بغياتها مع الريح ، وتتلقت نقوراً مروعة من جبال الصائد ، وشرك القانص ، ثم يزجي القول عن صواباتها في ثناء وإعجاب ، وينعتن بالنعومة والطهر والصون والتمتع ، والملاحة والحسن كأن في وجوههن مقل الأطباء ، وفي أعظافهن ريح الخزامى (٢)

فقد حدثوا أنه خرج يبغي إبلا له ، حتى أتى جبلاً ، فوجد عجوزاً قد أسنت ، وطلبت أن تقر به ، فلما استقر به المكان عندها استنشى ريح الطيب الذي صار

(١) الطبرى ٩ ج ص ٣ بتصرف

(٢) ٢ أغاني ص ٣١٦

ينفخ عليه من البيت ، ثم دخلت عليه بنت جميلة لهذه العجوز ، فالت من فؤاده ، وانصرف يتشعب بها في قوله :

نظرنا فهاجتنا على الشوق والهوى لزنب نار أوقدت بجبار
كان سناها لاح لي من خصاصة على غير قصد والمطى سوارى
وما روضة خضراء يضربها الندى بها قنة من حنوة وعرار
بأطيب من ريح القرنفل ساطعا بما التف من درع لها وخمار
وما ظبية سافت لها الريح نعمة على غفلة فاستسمعت لحوار
بأحسن منها يوم قامت فأتلعت على شرك من روعة ونفار
فليتك يا حسناء يابنة مالك يبيع لنا منك المودة شارى

هذا نمط ابن ميادة في شعره حين يتشعب ، وهو نمط صحراوي ، لا يتميز من الفطرة الأولى للشعر العربي ، في عهده الجاهلي والإسلامي ، فهو دائماً يستلهم البادية : جبالها ، ونباتها ، ونوارها ، وتلاعها ، وظبائها ، ويستنبط معانيه من البيئة التي تحيط به ، والبقاع التي يحل فيها ، ثم يخرجها كما تيسر له ، لا يسهر عليه جفنا ، ولا يكده طبعاً ، فيختشبه اختشاباً ، لا يتنوق فيه ولا ينقحه ، وقد قيل له مرة : (لو أصلحت شعرك لذكرت به ، لأن فيه كثيراً من السقط ، فقال : إنما الشعر كنبل في جفرك ، ترمى به الغرض ، فطالع وواقع ، وعاصد وقاصد ^(١)) فهو شاعر الفطرة والسليقة ، لا شاعر العمل والصناعة ، وما أشبهه بجرير ، فلم يكن شاعراً حولياً أى ينقح الشعر ويهذبه (وكان الفرزدق ينقح الشعر ، وكان جرير يخشب ، وكان خشب جرير خيراً من تنقيح الفرزدق) ^(٢) ومع هذا كانت غطفان تباهى به وتعهده أشعر شاعر فيها في الجاهلية والإسلام . لهذا تقرأ الكثير من شعر الرماح فترى خواطره مرسله كما تجيء ، لا تجمع بينها أواصر المنطق ، ولا نياط التفكير والتنقيح ، إلا أنه شديد المسلك لا يتعسف ولا يسخف ، ولا يفرق

(١) ج ١ تاريخ الأدب لرجى زيدان ص ٢٩٩ والعاصب المتلوى الذي لا يصيب

الهدف

(٢) أساس البلاغة مادة : خشب

في الحوشية ، ولا يسترسل في جفوة الأعراب ، بل يرسله مأنوساً سهلاً ، سائغ
المورد جزلاً ، ويكسوه شملة صحراوية ، ويلبسه حلة بدوية . وابن ميادة في حرية
شاعريته ، وبداوة ديباجته ، مجيب لطبعه ، خاضع لسليقته ، لأنه أولع بالصحراء
لم يألف سواها سكناً ، ولم يتخذ غيرها وطناً ، وكان له بالصحراء حنين عجيب ،
وشوق غريب ، فقد كان الوليد بموضع يقال له « أياير » (١) بالضم والياء الثانية
مكسورة ، في جهة الشمال من أرض حوران ، كان يخرج إليها أيام الربيع للنزهة ،
وبعث إلى الرماح فأنزله في كنفه مكرماً منعماً ، ولكن لا يهناً له عيش ، ولا تطيب
له حياة إلا بين تلاع الصحراء ورمالها ، فقال والوليد يسمع :

لعمرك : إني نازل بأياير وضوء ، ومشتاق وإن كنت مكرماً
أبيت كأني أرمد العين ساهراً إذا بات أصحابي من الليل نوماً
فقال الوليد : يا ابن ميادة ، كأنك غرضت من قربنا ، فقال : مامثلك يا أمير المؤمنين

يغرض من قربه ولكن :

ألا ليت شعري هل أيتن ليلة بحرة ليلى حيث ربّتي أهلي
بلاد بها نيطت على ثمائي وقطعن عني حين أدركني عقلي
وهل اسمعن الدهر أصوات هجمة تطالع من هجل حصيب إلى هجل
وهل أسمعن الدهر صوت حمامة تغني حمامات على فنن جثل
وهل أشربن الدهر مزن سحابة على ثمد الأفعاة حاضره أهلي

فقال الوليد : اشتاق الشيخ إلى وطنه . ومنحه مائة ناقة دهماً جعداء عشراء
وفلها ، وجارية بكرا ، وفرساً عتيقاً ، وجعل له مثلها كل عام ، وسمح له أن
ينصرف إلى وطنه (٢)

على أن ابن ميادة قد يتجرد أحياناً من جزالة البداوة ، فيرق شعره ويتحضر
ويلين ويتكسر ، ولكنه لا ينسى ماركز في طبعه ، وغرس في نفسه ، من أن

(١) وردت في الأغاني ج ٢ طبعة دار الكتب (أباين) والصواب ما ذكرناه

عن معجم البلدان

(٢) معجم البلدان ج ٢ ص ٢٠٥ والأغاني ج ٢ ص ٣١٠ طبعة دار الكتب ينصرف

يستمد من الضحراء وحيه ، ويستلهمها خياله ، فقد كان بما أعطاه الوليد جارية
طرية أعجمية لا تفصح ، ولكنها حسناء جميلة ، فعشقها ابن ميادة ، وقال فيها :
جزاك الله خيراً من أمير فقد أعطيت مبرادا سخونا
بأهلى ، ما ألدك عند نفسى لو أنك بالكلام تعزينا
كلأئك ظبية مضغت أراكا بوادى الجزع حين تبغينا

فلم يشأ فى رفته ولينه . وإعجابه بصوت جاريته التى لا تفصح : إلا أن
يشبهها بظبية سانحة بوادى الجزع ، تمضغ الأراك وتبغم بصوتها اللين الخنون .
ولابن ميادة طابعه الخاص ، حين يسكن الحب بين أضالعه ، ويتقد بصدرة
ويلق المرأة ، وتملك الصباية عذاته ، فانه يشعل فى نفسك لوعة الوجد ، ويجرك
مرارة الفراق ، ويسكب فى قوادك كأساً من حسرة المدله ، ويلقى على مسمعك
نبرات تسمعها خافتة خفوت اليأس المقهور ، فى مقاطع تعشقها الأسماع ،
وتألفها الطباع ، وهو فى ذلك رقيق لا ترى لرفته نهاية ، وعذب ليس لعذوبته
غاية . لقد أحب ابن ميادة امرأة من عشيرة ، تسكن أم جحدر ، ونسب بها ،
وباعد أبوها بينه وبينها ، كما جرت بذلك عادة العرب من حرمان الرجل حبيبته ،
إذا شرب بها ، أو تحدث الناس فى شأنهما ، وزوجها رجلاً من الشام ، وارتحل بها
فلقى عليها شدة ، وخرج ورامها ، يجد فى أثرها حتى أدركه أهله ، فارجعوه
صامتاً لا يتكلم من الوجد بها إلا بقوله :

ألا لاتعد لى لوعة مثل لوعتى	عليك بأدمى والهوى يرجع الذكرا
عشية ألوى بالرداء على الحشا	كأن ردائى مشعل دونه جمرأ
لعمري لى أمسيت يا أم جحدر	نأيت لقد أبلت فى طلب عذراً
خليلى من أبناء عذرة بلغا	رسائل منا لا تزيد كما وقرا
أما على تيماء نسأل يهودها	فان لدى تيماء من ركبها خبرأ
وبالت شعرى هل يحلن أهلها	وأهلك روضات يطن اللوى خضرا
فأعجب دار دارها غير أنى	إذا ما أتيت الدار ترجعنى صفرا
ألا ليت شعرى هل إلى أم جحدر	سبيل ؟ فأما الصبر عنها فلا صبرا

وانى لاستنشى الحديث من اجلها لاسمع عنها وهى نازحة ذكرا
 وبنى لاستحيى من الله أن أرى إذا غدر الخلان أنوى لها غدرا (١)
 فهو فى حبه وغزله من طراز أولئك الشعراء العذريين ، الذين أصبتهم النساء ،
 ودلهم الغرام ، وعاشوا بعقل مسبوه ، وفؤاد موزع ، أشباه جميل وعروة وقيس ،
 أولئك الذين تقرأ شعرهم ، فتردد فيه نفوساً محرومة ، وقلوباً موجعة ، كأنك
 تلمس خفقاتها باصبعك ، أو تردد أناتها على مسمعك ، فترثى لحالهم ، وتكتوى
 بلوعتهم ، وتحس كأنك هم ، فهات بالك ألقى عليه قول ابن ميادة :

بنفسى وأهلى من إذا عرضوا له يبعض الأذى لم يدر كيف يجيب
 ولم يعتذر عذر البرى ولم يزل له سكتة حتى يقال مريب
 إنها نفس مخبول ، قنص بجبائل الصباية ، وسحر بفعل الهوى ، فلم يستطع أن
 يدفع الناس إن عرضوا له بأذى ، لأنه لا يحير جوابا ، ولا يجد دفعا ، وإن كان
 يعلم علم اليقين أنه بنجوة من التهمة ، نقي من الريبة ، ولكنه لا يستطيع أن يتصل
 بما قرف به ، أو يتنضح بما اجترم عليه ، فيرمى بذنب لم يجنه ، ويحمل إثما لم يجترحه .
 ثم انظر إليه وقد احتشدت إلى خياله سوائف الذكريات ، وتمثلت إليه صور
 الأماكن والبقاع ، وما جرى بها من مواقف الوداع ، فجعلته كالمذلة المتناع ، فظن
 أن لقاءها شيء ليس مما يمكن الحصول عليه ، أو يتيسر الوصول إليه ، وأنه لا يشقيه
 إلا سهام الحب التى ترشقه حينما يستيقظ من نومه فيقول :

يمنونى منك اللقاء وإننى لأعلم لا ألقاك من دون قابل
 ولم يبق مما كان بينى وبينها من الحب إلا مخفيات الرسائل
 وإنى إذا استنبت من حلورقده رُميت بحبيها كرمى المناضل
 ثم ها هو ذا يحدثك فى قصيدته هذه أن الحب جنى عليه فصرفه عن سائر
 النساء ، وقد كان يرمى الزوائل ، أى طبائبا بإصباة النساء ، خلبا لهن ، فلما وقع صريع
 الغرام ، وأصبح نضو السقام ، عزف عنهن ، وفرغ قلبه من الشغل بهن ، فيقول :
 وكنت امرأ أرمى الزوائل مرة فأصبحت قد ودعت رمى الزوائل

وعطلت قوس اللوز من سرعائها وعادت سهامى بين رث وناصل
فابن ميادة شاعر كسائر الشعراء ، وتشبيهه ككل تشبيب ، حين ينسوقه على
غرار الشعراء الاسلاميين ، فى عبث النفس ، أو مقدمات المدح ، فيرصعه بذكر
الديار والطباء والأراك وما إلى ذلك من مشاهد البادية ، ثم يعرض لاجحاب
الغواني به ، وإدلاله بنفسه ، ومسارقتن النظر إليه ، ورميه بسهام اللحاظ ، شأنه
فى ذلك شأن الشاعر الكذوب ، أو الشاب الدعب الطروب ، فمن ذلك قوله :

وكواعب قد قلن يوم تواعد قول المجد وهن كالمزاح
ياليتنا فى غير أمر فادح طلعت علينا العيس بالرماح
بيننا كذاك رأيتنى متعصباً بالخرز فوق جلاله سرداح
فيهن صفراء المعاصم طفلة يضاء مثل غريضة التفاح
فنظرن من خلل الحجال بأعين مرضى مخالطها السقام صحاح
وارتشن حين أردن أن يرميتنى نبلا بلا ريش ولا بقداح

فهذا شعر حسن ، وسبك محبوك ، وصنعة دقيقة ، كأنه من بضاعة عمر ابن
أبى ربيعة وسيله مألوف لمن تقدموا ابن ميادة أو تأخروا عنه من الشعراء
ولكن معانيه لم تنبع من قلبه ، ولم تتفجر عن عواطفه ، ولم يصورها إحساسه ،
أو ينفخ فيها بروحه . ومن الشعر المصنوع لابن ميادة ، وإن كان ما أفضى عليه
من العفة والتصون ، وما أودعه فيه من الاجادة وحسن السبك ، أسنى قيمته ،
وأعلى مرتبته قوله :

يا أطيب الناس ريقا بعد هجمتها وأملح الناس عينا حين تنتقب
ليست تجود بنيل حين أسأها ولست عند خلاء اللهو أغتصب
لا يمكننا القول فى هذا الشعر وأضرابه إلا أن ابن ميادة صانع حاذو
ومثال ماهر ، ونساج محكم جيد القون متمرن ، ولكنه غير مطبوع ولا ملهم ،
أما إذا أردت أن تسمع الفن فى شعره ، وتمسك قلبه بين مقاطعه ، وتعرف شيئا
أحلى من الوصل ، وأفعل من الخمر . فهناك قوله :

كان فؤادى فى يد قبضت به محاذرة أن يقضب الجبل قاضيه

وأشفق من وشك الفراق وإنتى - أظن - - المحمول عليه فراكبه
 لقد سبقتك اليوم عيناك سبقة وأبكاك من عهد الشباب ملاعبه
 فوالله لا أدري أينلبنى الهوى إذا جد جد البين أم أنا غالبه ؟
 فان أستطع أغاب وإن يغلب الهوى فمثل الذى لا قيت يغلب صاحبه
 وكان ابن ميادة يرق ويعذب اذا استجاب لطبعه واستلهم روحه وعاطفته
 وإذا قال كما يقول الناس ، كان جزلا رصينا ، ومال إلى التوعر أحيانا ، واحتفى
 بدقة الصنعة ليستر ما فاته من طبعه وما خالف فيه وجدانه . وقد تأثر بصحبة
 الوليد ، فقال فى الخبر ، ومن ذلك : (١)

ألا رب خمار طرقت بسدقة من الليل مرتاداً لندمانى الخمر
 فأهلكه خمرأ وأحلف أنها طلاء حلال كي يحملنى الوزرا
 وقد غلبت عليه ورائته لزهير بن أبى سلى فكان أحيانا يرسل المثل
 والحكمة كقوله : (٢)

وأرانا كالزراع يحصد الدهر فمن بين قائم وحصيد
 وكأنا للبوت ركب مخبؤ ن سراع لمنهل مورود

وقوله : (٣)

بنو الصالحين الصالحون ومن يكن لآباء سوء يلقهم حيث سيرا
 فما العود إلا نابت لأرومة أبى شجر العيدان أن يتغيرا
 وأختم كلامى عنه بقول الأصمعى : (ختم الشعر والشعراء بالرماح) (٤)

حسن علوانه

(١) ج ٣ ص ١٩٧ البيان والتبيين

(٢) ج ٣ ص ٨٣ نهاية الأثر

(٣) ج ٢ أغاني ص ٣٣٧

(٤) ج ٣ ص ١٩٧ البيان والتبيين